بن لادن وحركة طالبان ..الإعلام.. إفراط وتفريط

كان بن لادن والملا عمر تجمعهما صفه مشتركة هي الفدائية فى خدمة الدين. وبعد ذلك تفتح بينهما أخاديد واسعة من الفروقات * فبينما الملا عمر يفحص الأرض جيداً وبعناية قبل أن يضع قدمه عليها، نجد بن لادن مغرماً بالقفز في الهواء، ولا يبالي إن كانت أقدامه ستصادف الأرض بعد ذلك أم لا.* وبينما الملا عمر يتحرك فوق أرضه وبين قبائله وشعبه, وضمن تيار ديني أصيل وممتد منذ قرون ويجتمع عليه كل الشعب, أو غالبيته العظمى.* نجد بن لادن يقفز على كل أرض ولا يخاطب شعوباً بل يخاطب تنظيمات محدودة معظمها مجهول المنشأ والمصب, ويعبر عن تيار ديني أبسط ما يميزه هو الخلاف والعداوة مع كل من سواه, ويفتت القوة الإسلامية اكثر من أن يجمعها.* أما موقفهما من الإعلام فكان على طرف نقيض, فبينما وضع بن لادن نفسه في أقصى درجات الإفراط, وضع الملا عمر نفسه في الجهة المقابلة من التفريط. وكلاهما دفع غالياً لموقف غير صحيح, خاصة وقد بات واضحاً خطورة دور الإعلام إلى درجة يصعب تصديقها, وظهر هذا في الحرب الأمريكية على أفغانستان أكثر من أي مكان آخر أو ظروف أخرى, حتى أن عديد ممن راقبوا هذه الحرب عن قرب, يرون أن إذاعات الحلفاء أثرت عميقاً على نفسيات الشعب الأفغاني وأعضاء حركة طالبان وسهلت عملية انهيارهم السريع.* كما أن العديد من كوادر القاعدة الكبار اشتكوا من فداحة تأثير الإعلام على شخصية بن لادن وقراراته وعلاقاته وفى الأخير التأثير في مصيره.* كان للإعلام الغربي مبالغاته غير المعقولة فيما يخص بن لادن وكل ما يتعلق به, وكان ذلك مفهوماً بأنه ضمن إطار سياسة أمريكا في الاستفادة من صناعة هذا العدو الذي يجب أن يكون رهيباً وخارقاً بما يوازي عظيم الأهداف والاختراقات التي تنوى تنفيذها في شتى الدول وفى أنحاء المعمورة.* فلو أن الأعلام الأمريكي (والدولي من خلفه) التزام بتجسيد صورة بن لادن كما هي، لما احتاج الأمر لأكثر من قدرات واحد من أحط أجهزة أمن الدولة قيمة في دوله عربية متهالكة، ناهيك عن الاستخبارات الباكستانية ذات الباع الأطول في أفغانستان.. فقد كان من دواعي سرورها ـ إذا تلقت ثمناً مناسباً ـ أن تنهى مشكلة بن لادن في أقل من شهر.. لكن أمريكا كانت تحتاج إلى اكثر من ذلك بكثير, تحتاج إلى عدو عالمي ضخم, يملأ فراغ الاتحاد السوفييتي الراحل, ويبرر عدواناً أمريكياً على العالم أجمع.. لقد صدق بن لادن الأكذوبة الكبرى بكل صدر رحب، وبات يتصرف على أنه فعلا في هذا الحجم وبهذه القدرات، وإن قيمته الفعلية هي قيمته الإعلامية.. والظريف أن كل الكوادر الكبيرة في القاعدة حذروه من تصديق الأكذوبة، ولكنه استمتع بها, وابتعد تدريجياً عمن حذروه من مغبة التخدير الإعلامي والتضخيم على غير أساس، ولكنه قرّب منه صغار السن الذين وفدوا أساساً من اليمن ثم السعودية وباقي دول الخليج, ثم وضع ممولين جدد في مصاف الدرجة الأولى في "تنظيمه" حتى أنه استحدث مناصب جديدة لهم لم يعرفها العالم عن تنظيم القاعدة مثل منصب الناطق الرسمي الذي ومض فجأة مع وميض الصواريخ في السماء المظلمة لأفغانستان. لقد عاد البريق الإعلامي بإيجابيات حقيقية بالنسبة لبن لادن والقاعدة, خاصة بعد تفجير المدمرة كول في ميناء عدن، فقد ازداد عدد الشباب القادمين من اليمن والسعودية صوب بن لادن, وزاد تدفق الأموال, فانتعش الوضع المالي للقاعدة بعد إملاق دام عدة سنوات ((وهذا على

عكس ما يوصف به بن لادن عادة بأنه ملياردير!! وكان في البداية يوصف بالمليونير, ولكن ذلك في وجهه نظر الإعلام الأمريكي ليس لائقاً بمستوى العدو الأول للولايات المتحدة فغيروا اللقب إلى ملياردير!!)).. كان الاندفاع غير المحسوب من بن لادن تجاه الإعلام الدولي هو المتسبب الأساسي في تخريب العلاقة بينه وبين حركة طالبان والملا عمر.. فقد كانت الضغوط القادمة على الحركة من السعودية وباكستان نيابة عن أمريكا لا تطاق، والتهديدات الأمريكية كانت متصاعدة وذات لهجة وقحة للغاية.. ولم يكن الملا عمر مستعداً لخوض غمار مواجهة على هذه الجبهة وقد أوضح مباشرة وبصراحة لبن لادن أن لديه من المشاكل الداخلية ما يكفى، وأن عليه أن يتوقف حتى تستقر الأوضاع الداخلية وتنتهي المقاومة المسلحة للنظام والتي تقف حولها جبهة دولية, إقليمية واسعة جداً وفعالة, وأوضح له في مرات كثيرة وزراء خارجية الحركة وكبار المسئولين فيها أن حكومة طالبان تعانى من عزلة سياسية, وأن القلائل الذين اعترفوا بها ـ ثلاث حكومات فقط ـ هم أقرب إلى الأعداء منهم إلى الأصدقاء.. كان بن لادن ذكيا لدرجة كافية كي يدرك صحة كل ذلك بل وأكثر منه, وأن موقف حركة طالبان ضعيف بل وخطير، وأن حلقة العداء حولها محكمة.. ولكنه لم يكن مستعدا بأي حال أن يتنازل عن أضواء الإعلام الدولي، خاصة والأخبار الواردة من السعودية واليمن تشير إلى إقبال جماهيري غير. مسبوق على الإطلاق على لقاءاته التلفزيونية, حتى أن الشوارع تكاد تخلو من المارة عند بثها.. وحتى الصحف الحكومية تستعمل اسمه في عناوينها الرئيسية لزيادة مبيعاتها, وإن كانت الأخبار كاذبة في أكثر الأوقات... ظن بن لادن ـ من الضجة الإعلامية الرهيبة عنه ـ أن بإمكانه هز العالم وتغيير خريطته السياسية, وأن الملا عمر والطالبان يعرقلون عمله, وبالتالي يفرطون في فرصة نادرة للعالم الإسلامي، وأنهم اقل بكثير من أن يدركوا الموقف الدولي الراهن وقدرته الشخصية على التأثير فيه, أو أنهم يشعرون بالغيرة منه ومن شهرته, وكيف. لا والعالم كله لا يمل عن الحديث عن بن لادن, ولا يكاد أحد أن يشعر بالملا عمر أو يعرف عنه شيئاً, إلا القليل الذي لا يحمل سوى إيماءات التحقير والتهوين... وانسحب ذلك التقدير ـ أو التهوين ـ من جانب بن لادن على جميع من حوله من أفراد أو جماعات, فالجميع قد أصبح لا يدرك ولا يستوعب ما وصل إليه, وما يدركه وما يمكنه فعله.. فاستشعر كبار من حوله بالخطر, وقال بعضهم بمرارة أنهم أصبحوا يدركون حكمة الملا عمر في عزوفه عن الإعلام.. وكان اكثر ما يخيفهم هو احتمال تحول النيات من العمل في سبيل الله إلى العمل من اجل الشهرة والرياء..وبدأت علاقتهم بزعيمهم يعتريها الفتور, وبدأ هو يتصل مباشرة بالشباب الجدد بعيداً عن القدماء "المتحجرين". وهؤلاء من جهتهم تجنبوه على قدر ما يمكن أن تسمح به الطبيعة الروتينية للعمل، ليس فقط لكونه كثير التدخل في تفاصيل ما بين أيديهم من واجبات, ولكن أيضاً لكثرة ما حوله من أفواج المنبهرين من الشباب الجدد, أو وفود كبار الزوار المشجعين من باكستان وجزيرة العرب.. في أواخر الأيام, كاد لسان حاله أن يقول: أنا القائد الفعلي للجميع, والذي لا يسلم لي قياده فهو إما جاهل أو حاسد.. ومازحه أحد منتقديه من أصدقائه القدماء قائلا:. (كنا في الماضي نتمنى أن يكون لنا أميراً للمؤمنين, والآن اصبح لنا اثنان.. أنت والملا عمر).كانت مزحة ولكنها خالية من المبالغة، بل إنها مزحة وقعت على مفصل المأساة التي أودت بأفغانستان فريسة في

براثن الوحش الأمريكي.. لقد "نفخ" الإعلام الأمريكي بن لادن, وجعله عملاقاً دولياً موازياً للقوة الأمريكية فصار بن لادن يصدق أكاذيب الإعلام، واعتقد أنة صار اكبر من الجميع بما فيهم حاكم البلاد.. هم علامة فارقة في العلاقة بين الملا عمر وبن لادن حدثت بسبب الإعلام، وذلك قبل قليل من حادث تفجير سفارتي أمريكا في (نيروبي ودار السلام) الذي كان بداية ارتفاع وتيرة الهستيريا الأمريكية المعادية لبن لادن، وبالتالي بداية سلسلة العقوبات الأمريكية، والخنق التدريجي لحركة طالبان وشعب أفغانستان.. وكان الملا محمد عمر قد أنهى منذ فترة وجيزة لقاءً عاصفاً مع مدير الاستخبارات السعودية تركي الفيصل, كان نتيجته أن دخلت علاقاته مع السعودية في عنق زجاجة لم تخرج منه أبداً.. كان تركي قد حضر بطائره خاصة من طراز بوينج طالبا من الملا عمر تسليمه بن لادن ومن معه كي يعود بهم إلى السعودية، ثم ادعى أن الملا وعده بذلك في آخر لقاء بينهما.. ولم يكن ذلك صحيحاً وهو ما أوضحه له الملا فتصنع السعودي الكبير الهستيريا وضرب بقبضة يده سفرة الطعام الممتدة بين يدي الجمع فتطاير ما عليها، واتهم الملا عمر بخداعه، فطلب مساعدي الملا عمر من أميرهم أن يأمرهم بضرب تركي ووضعه في السجن جزءاً على سوء أدبه.. ولكن الملا عمر رفض واكتفى بما اعتقد انه اشد وطأة، فوجه كلاما قاسياً للسعودي المغرور متهماً إياه بانعدام الغيرة (وهي تعنى عند الأفغان الاتهام بالدياثة) وسأله مستنكراً: هل أنت وزير سعودي أم وزير أمريكي؟ ولما لم تعودوا رجالا تدافعون عن الإسلام الذي حمله إلينا أجدادكم؟ وكيف تقبل أن تسلم مسلماً لكافر؟ وكيف تطالب به وقد أسقطتم عنه الجنسية ولم يعد مواطناً عندكم ؟. عاد تركي خالي الوفاض, منتفخ الأوداج وقد سقطت هيبته في أفغانستان، وهى حصاد عمل طويل شاق في حقبة التسعينات وقت كان آمراً ناهياً لزعماء التنظيمات الأفغانية بحكم قوة بلاده المالية.. وربما خسر الوزير حظوته داخل بلاده، فقد كانت مهمته محط آمال أمير سعودي من الطراز الأول ينتظر في الدار البيضاء الخبر السعيد باستلام بن لادن حتى يحمله في رحلته إلى واشنطن بشرى لسيد البيت الأبيض، على أمل أن يحسم ذلك النصر موقف ذلك الأمير من سباق الماراثون نحو كرسي المملكة والذي لا يحسم إلا في واشنطن.. ربما أراد الملا عمر تهدئة التصعيد في أزمة بن لادن، والتي تتحرك فيها أمريكا ومعها الدول الثلاث الوحيدة التي تعترف بالطالبان ـ والتي يمكنها قطع العلاقات بطلب من أمريكا، فيصبح وضع الطالبان في أفغانستان محرجاً, خاصة وهناك تلويح بعدد كبير من العقوبات منها طرد الأفغان العاملين في دول الخليج والسعودية, وهناك التهديد بسحب الاعتراف بجوازات السفر الأفغانية, بما يعنيه ذلك من سجن الأفغان داخل بلادهم، والأدهى هو عدم قدرة الأفغان على أداء فريضة الحج، وهو الاحتمال الذي كان يرعب حركة طالبان، التي تعتبر إقامة الشعائر والحدود هو عماد شرعيتها الدينية في الحكم.. أول خطوات التهدئة ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه هو تهدئة بن لادن تصريحاته الصحفية ـ المباشرة وغير المباشرة ـ والتي تثير ضجيجاً عالمياً رهيباً, ينعكس بكل سلبية على إدارة الطالبان.. لم يجد الملا عمر من يقبل مهمة الذهاب إلى بن لادن ومطالبته بالهدوء الإعلامي وتقليص مقابلاته مع الضيوف الخارجيين، فقد حاولوا وفشلوا المرة تلو الأخرى، فقرر الملا الذهاب إلى بن لادن بنفسه, وبصحبته عدد من كبار الوزراء، و حتى يطلب منه بنفسه التزام الهدوء..

وهذه الخطوة في العرف القبلي لها معنى خاص، ففيها الكثير من التواضع والتكريم للضيف، لابد أن يقابله الضيف بالتقدير والاحترام والاستجابة لمطالب المضيف, خاصة وأنه الحاكم ويمكنه إنفاذ ما يريد بمجرد إصدار الأوامر واستخدام القوة لتنفيذها إذا لزم الأمر. * لكن بن لادن تخطى جميع الأعراف وضرب بها عرض الحائط، فقد أنفعل ـ وادعى أن الملا عمر يمنعه من أداء واجب شرعي وفرض متعين، وطالبه بأحد شيئين, إما أن يقفا سوياً أمام محكمة شرعية من العلماء كي تقضي في المسألة, أو أن يترك بن لادن ومن معه البلاد تاركين النساء والأطفال في عهدة الإمارة.. كانت قنبلة غير متوقعه وإهانة للملا عمر أمام أركان دولته، فكلا الأمرين المطلوبين يشكل إهانة له، وبدلاُ أن يتلقى الشكر والامتنان من بن لادن إذا به يطالب بمحاكمته أمام محكمة شرعية !! لمجرد أن طالبه بشيء هو من صميم اختصاصه كحاكم.. والثاني: أن خروج بن لادن ومن معه من الرجال وترك النساء والأطفال مع الملا عمر، فيه اتهام واضح للرجل بأنه جبان وخائف، وهو اتهام شنيع، ويزيد شناعته أنه غير صحيح ـ على ضوء الماضي القتالي للملا عمر، وعلى ضوء شجاعته في تحدي أمريكا والسعودية وباكستان دفعة واحدة ورفضه تسليم بن لادن أو أبعاده من أفغانستان.. لقد انقلب الوفد المرافق للملا عمر إلى أعداء ألداء لبن لادن ـ بعضهم أبدى ذلك ثم كتمه خوفاً واحتراما للملا عمر, الذي قطع علاقته تقريباً مع بن لادن ـ وظل ثابتاً بعناء أمام مطالب مساعديه وضغوط الخارج عليه لاتخاذ إجراء ما ضد بن لادن.. لم تعد المياه أبداً إلى مجاريها السابقة بين الملا عمر وبن لادن بعد هذا اللقاء العاصف.. ولكن حدة المشاعر الغاضبة خفت كثيراً بعد مساعي فاعلي الخير ـ والتي صادفت طيبة نفس فطرية للرجل الشجاع... لقد ضحى بن لادن بأقرب وأقوى حلفائه في أفغانستان في مقابل أوهام الأعلام الدولي.. ننتقل من أقصى الإفراط الإعلامي عند بن لادن إلى أقصى التفريط الإعلامي عند الملا عمر.. يعود ذلك إلى عدة اعتبارات, أولا طبيعته المنطوية العزوفة عن الانفتاح الاجتماعي الواسع, يدعم ذلك طبيعة صوفية نقية, تهتم بمحاسبة النفس ومراجعة الدين والبعد عن السمعة والرياء المحبطين للعمل.. العامل الثاني: كان التجربة المحبطة للإعلام الذي صاحب المنظمات الأفغانية في فترة الجهاد ضد السوفييت، وما شاب ذلك الإعلام من تمجيد الفرد, والمبالغة في أعمال لمنظمات ربما لم تقم بها أصلاً, وذلك بهدف التنافس الحزبي, والأكاذيب مكون أساس في كل ذلك, باختصار ارتبط. الإعلام فى ذهن الملا عمر بالانحطاط الأخلاقي والتنافس الذميم على الدنيا.. وليس غريباً أن يشاع عن وزير الإعلام في حكومة طالبان بين زملائه من الوزراء لقب "وزير اللغو" وأن ينسب إطلاق ذلك اللقب إلى الملا عمر.. ولابد من الإشارة هنا إلى دور هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في القضاء على حركة الإعلام في البلاد أثناء تجربة طالبان, ودور هذه الهيئة يحتاج إلى بحث تفصيلي، نظراً لخطورة دورها في المجتمع الإسلامي وكيف تحول بشكل ما إلى عامل سلبي في تجربة الطالبان، رغم أن المفترض كان غير ذلك, وكان الناس بما فيهم الوزراء يتناقلون ما يشبه الطرفة السوداء عن هذه الهيئة، والمصيبة الكبرى أن هذه الطرفة تحققت بشكل ما.. ونصها يقول (سقط نظام داود بسبب جهاز الشرطة، وسقط النظام الشيوعي بسبب جهاز الخاد (المخابرات), وسقط نظام طالبان بسبب هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).. لقد ساهمت الهيئة في تعكير صفو العلاقة

بين حركة طالبان وجمهور الشعب، وهي علاقة كانت مثالية في بداية نشوء الحركة, التي وصلت إلى الحكم على. أكتاف الشعب, الذي رأى فيها منقذاً من حالة انفلات الأمن الذي اجتاحت البلاد وعصفت بأمن المواطن وكرامته وشرفه.. لكن الهيئة استخدمت العصا بإفراط, وفى غير موضعها, وأهانت كثيرين بدون سبب.. كانت هيئة الأمر بالمعروف و وهيئة الإفتاء مسئولتان عن فرض قوانين عجيبة أساءت للنظام داخلياً وخارجياً, ليس لأنها تفتقد إلى مستند شرعي, ولكن لافتقارها إلى تقدير الظروف الراهنة والاحتياجات الفعلية للمواطنين والنظام، في الداخل والخارج, كانوا حسب قول أحد المراقبين يبحثون. عن الغرائب والطرائف ويجعلون منها قضايا كبرى، في بلد يفتقد إلى ابسط مقومات الحياة، ودولة تعانى أقصى ظروف الاضطهاد الدولي.. طاردت هيئة الأمر بالمعروف ما تبقى من إمكانية العمل الإعلامي الداخلي أو الدولي, عن طريق مطاردة المصورين والكاميرات أينما كانوا، وجعلوا ضبط الكاميرا جريمة يعاقبون عليها فوراً، حتى ولو لم تستخدم في التصوير, والطريف أن حيازة الأفيون لم تكن جريمة يعاقب عليها القانون أو تعاقب عليها الهيئة، بينما حيازة كاميرا للتصوير جريمة قد تصل عقوبتها إلى أسبوع سجن، بالإضافة إلى ما تيسر من ضربات العصي.. أصبح العمل الإعلامي محتقراً, وعنصر التصوير محظوراً ويمارس بأساليب أقرب إلى أساليب المهربين واللصوص.. حتى جاءت الحرب والإعلام الأفغاني في ادني مستوى ممكن. . وفهم الطالبان بعد فوات الأوان أن آلة الإعلام الأمريكي طحنتهم، ليس أقل مما فعل سلاح الطيران الأمريكي الذي لم يرحم حتى وسائل الأعلام البدائية لدى حكومة طالبان، فقصف معدات الإرسال الإذاعي في البلاد, واحتكر – تقريباً – مصادر الأخبار عن كل أحداث الحرب والتطورات داخل البلاد، ولم يبق لدى طالبان أي صوت سوى صوت سفيرهم في إسلام آباد، وحتى هذا لم يسكتوا عنه, بل دفعوا باكستان إلى إسكات صوته, ثم القوا القبض عليه، والأغلب أنه الآن في أحد أقفاص جوانتانامو